أدب الأندلس

٣ـ ابن بسام صاحب الذخيرة
والشاعر ابو مروان الطُّبْنى
للأستاذ عبد الرحمن البرقوقى

ألاَ يحسن بنا بعد أن أوردنا ترجمة ابن بسام للشاعر أبي مروان الطبني أن نردفها بترجمة الفتح بن خاقان لهذا الشاعر حتى ترى فرق ما بين الترجمتين فتتم الموازنة بذلك بين هذين الأديبين من جهة ، وحتى نوفى ترجمة هذا الشاعر حقها مما فى ترجمة الفتح من زيادة على مما فى ترجمة ابن بسام من الجهة الأخرى . نعم ، قال الفتح فى المطمح فى حق الطبنى : من ثنية شرف وحسب ، ومن أهل حديث وأدب ، امام فى اللغة متقدم ، فارع لرتب الشعر متسنم ، له رواية بالأندلس ورحلة إلى المشرق ، ثم عاد وقد توّج بالمعارف المفرق ، وأقام بقرطبة عَلَماً من أعلامها ، ومتسنما لترفعها وإعظامها ، تؤثره الدول ، وتصطفيه أملاَ الأول ، وما زال فيها مقيما ، ولا برح عن طريق أحانيها مستقة إلى أن اغتيل فى إحدى الليالى بقضية يطول شرحها ، فأص مقتولا فى فراشه ، مذهولا كل أحد من انبساط الضرب ا على انكماشه ؛ وقد أثبت من محاسنه ما يعجب السامع ، وتص اليه المسامع ؛ فمن ذلك قوله :

وضاعف ما بالقلب يوم رحيلهم ... على مابه منهم حنين الأبا
وأصبر عن أحباب قلب ترحلوا ... ألا إن قلبي سائر غير م

ولما رجع إلى قرطبة وجلس ليرى ما احتقبه من العلو اجتمع اليه فى المجلس خلق عظيم ، فلما رأى تلك الكثرة ، و عندهم من الأثرة قال :

إنى إذا حضرتنى ألف محبرة ... يكتبن : حدّثنى طوراً وأخبر
نادت بمفخرتى الأقلام معلنة ... هذى المفاخر لا قبيان من لبن (١)

وكتب إلى ذى الوزارتين أبي الوليد ابن زيدون :

أبا الوليد وما شطت بنا الدار ... وقلّ منا ومنك اليوم زو
وبيننا كل ما تدريه من ذمم ... وللصبى ورق خضر وأر
وكل عتب وإعتاب جرى فله ... بدائع حلوة عندى وآ
فاذكر أخاك بخير كلما لعبت ... به الليالى فان الدهر د

وتأملى تجدى تباريح الهوى ... قد ميزتك برقة وسناء
ما كنتِ قبل اليوم إلا دمية ... تحوى ضروب الحسن دون رواء
يأتى الربيعُ فلا ترين جماله ... إلا بعطرِ زهوره الميلاء
وتدغدغ النسماتُ وجهكِ حيث لا ... تلقى سوى لون بلا إغراء
وإذا تمايلت الغصونُ وصفّقت ... أوراقها فى الروضة الغناء
لم تدركى معنى تمايلها ، ولم ... تقفى على همساتها الخرساء
ما كان قلبك رغم كل حنوّه ... إلا شبيه الصخرة العماء
واليوم بتّ وقد عرفتِ لغى الهوى ... نبتَ الخلودِ ومهبطَ الإيحاء
فاذا رنوتِ إلى السما عند المسا ... ورأيت سلك الأنجم الزهراء
أدركتِ شيئاً لم يكن لك ظاهراً ... وكشفتِ سرّ القبة الزرقاء
أمسيتِ أقرب للذى أمر الورى ... بالحبّ ، لا بالحقد والبغضاء
سرّى إذن ، وليبحُ عنكِ الحزن ما ... يجتاز قلبك من هوى وهناء

(عاصمة الأرجنتين) إلياس قنصل

عود الى الذخيرة

« وأما بعد » فقد آن لنا أن نعود إلى القول على كتا الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، وهو الأثر الفذ الباقى للمترّ له أبي الحسن على بن بسام ؛ ولولا أن لهذا الكتاب شأناً غ شأن سائر نظائره لما عرضنا للقول عليه والتعريف به ، لم لنا عليه نظرة ليس منها بد ؛ ولا سيما بعد أن بشرنا صديق الأستاذ الكبير محمد كرد على بك بأن هناك لجنة من أفاض المستشرقين تألفت برياسة العلامة المستشرق الفرنسى الأست ليفى بروفنسال لاخراج هذا الكتاب الضخم الخالد الذ حُرمت منه المكتبة العربية هذا الزمن الأطول ...

* * *

(١) يشير الى قول الشاعر :
تلك المكارم لا قبيان فى لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا
واقعب قدح من خشب يروى الرجل والاثنين والثلاثة

وضع قديماً أبو عبد الله هرون بن علي بن يحيى بن أبي منصور نجم البغدادي المتوفى سنة ٢٨٨ هـ كتاباً اسمه «البارع» في أخبار شعراء المولدين جمع فيه مائة وواحداً وستين شاعراً، وافتتحه بكر بشار بن برد وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح، واختار له من شعر كل واحد عيونه، وقال في أوله: إني لما عملت كتابي في أخبار شعراء المولدين ذكرت ما اخترته من أشعارهم وتحريت في ذلك الاختيار أقصى ما بلغته معرفتي وانتهى اليه علمي؛ والعلماء يقولون: دل على عاقل اختياره. وقالوا: اختيار الرجل من وفور عقله. وقال بعضهم: شعر الرجل قطعة من كلامه، وظرفه قطعة من عقله، واختياره قطعة من علمه. وطول الكلام في هذا وذكر أن هذا الكتاب مختصر من كتاب ألفه قبل هذا في هذا الفن، وأنه كان طويلاً فحذف منه أشياء واقتصر على هذا القدر. ثم جاء بعده أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ووضع كتابه «يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر»، وجعله ذيلاً لكتاب البارع؛ هذا ثم جاء أبو الحسن علي بن الحسن الباخرزي المتوفى سنة ٤٦٧ هـ؛ وألف كتاباً اسمه «دمية القصر وعصرة أهل العصر»، وجعله ذيلاً لكتاب يتيمة الدهر؛ ثم جاء أبو المعالي سعد بن علي الوراق الحظيري المتوفى سنة ٥٦٨ هـ وصنف كتاباً أسماه «زينة الدهر»، وجعله ذيلاً على دمية القصر؛ وأخيراً ظهر العماد الكاتب الأصبهاني المعروف بابن أخي العزيز والمتوفى سنة ٥٩٧ هـ، ووضع كتابه المسمى «خريدة القصر وجريدة أهل العصر»، وجعله ذيلاً على زينة الدهر للحظيري. هذا في المشرق، وأنت فانك تعلم أن الأندلسيين كثيراً ما يحذون حذو المشارقة في سائر مناحيهم؛ ومن ثم نحوا نحوهم في وضع هذا النوع من التواليف، فوضع الأديب الكاتب الشاعر أبو عمر احمد بن فرج - وكان معاصراً للخليفة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر - كتاباً اسمه «الحدائق» قدمه للخليفة المستنصر وعارض به «كتاب الزهور» لأبي محمد بن داود الأصبهاني ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً - وسنترجم لهذا الأديب - ثم جاء من بعده صاحبنا أبو الحسن علي بن بسام فوضع كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» وجعله ذيلا على حدائق ابن فرج. وفي عصره صنف الفتح بن خاقان كتابي القلائد والمطمح، وجاء بعدها الأديب أبو عمر بن الامام وذيل على الذخيرة والقلائد بكتاب اسمه سمط «الجمان وسقيط المرجان» ذكر فيه من أخل ابن بسام والفتح بتوفية حقه من الفضلاء، واستدرك من أدركه بعصره في بقية المائة السادسة؛ وذيل على هذا الكتاب أبو بحر صفوان بن ادريس الكاتب الأندلسي الكبير بكتاب سماه «زاد المسافر» ذكر فيه جماعة ممن أدرك المائة السابعة. وهنا نذكر أن أكثر هذه الكتب مفقود كما أن هناك تواليف كثيرة من هذا القبيل لم نسمع بها فضلا عن أنها غير موجودة. فلقد أخبرنا الامام أبو محمد بن حزم في رسالته التي يشيد فيها بفضائل الأندلس أن للشاعر الوشاح أبي بكر عبادة بن ماء السماء كتاباً في أخبار شعراء الأندلس أثنى عليه وقال انه كتاب حسن في معناه. وحدثنا أيضاً بأغرب من هذا وهو أن من بين الكتب التي وضعت للخليفة الحكم المستنصر كتاباً في أخبار شعراء «ألبيره» في نحو عشرة أجزاء... فتأمل... ومما يتصل بهذا وما هو أقعد في باب الغرابة ما حدثنا به ابن حزام أيضاً من أن هناك شاعراً أندلسياً كان في عصر جرير والفرزدق اسمه أبو الأجرب جَمْدُونَة بن السَّمْنة الكلابي يقول ابن حزم في حقه: ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب في الشعر لم نباه به إلا جريرا والفرزدق لكونه في عصرهما؛ ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين. وحكى ابن سعيد صاحب كتاب المغرب قال: ان عباس ابن ناصح الشاعر الأندلسي لما توجه من قرطبة إلى بغداد ولقي أبا نواس قال له أنشدني لأبي الأجرب قال: فأنشدته، ثم قال: أنشدني لبكر الكناني، فأنشدته؛ فأين شعر هذين الشاعرين الأندلسيين العظيمين؟ إنا وا أسفاه لم نعثر لهما على شيء قط..... ثم وأين كتاب المُسهب للحجَاري، وكتاب المغرب لابن سعيد، وكتابا المبين والمقتبس لمؤرخ الأندلس الأكبر أبي مروان حيان ابن خلف!؟... وأين وأين...!؟

أين سكانك لا أين لهم أحجازا أوطنوها أم شآما

* * *

فاسألنها واجعل بكاك جواباً تجد الدمع سائلا ومجيبا

عبد الرحمن البرقوقي